قرطاس

▪ أحمد عبد الحسين

اغضبوا تصحّوا!

الشعوب التي لا تثور على الظلم الذي يلحق بها، ولا تغضب في وجه سرّاقها، ولا تحتجّ على قسوة المتسلطين المسلّحين بالمال والعقيدة، شعوب ليست جبانة بالضرورة، وهي لا تخنع وتستسلم بسبب اقتناعها بعدالة "الحاكم المستبدّ" وإنما لسبب أعمق مردود إلى جذر سيكولوجيّ مؤداه ما أفصح عنه عالم النفس الكنديّ "ميلفن ليرتر" الذي أطلق في ستينات القرن الماضي نظرية "الاعتقاد بعدالة العالم".

يعود الفضل للصديق الباحث الدكتور فارس كمال نظمي في تعريفي بهذه النظرية وتطبيقاتها عراقياً في كتابه الشيّق المهمّ "الأسلمة السياسية في العراق .. رؤية نفسية" الصادر توّاً عن دار مكتبة عدنان. ففيه فصل يبحث جذور وأسباب النزعة الماسوشية في العقلية العراقية، يتخذ فيه من نظرية "ليرتر" هادياً له في التنقيب عن هذه الجذور.

ملخّص النظرية اعتقادُ الناسِ لاشعورياً أن العالَمَ عادل، وأنّ ما يجري عليهم ويحدث لهم من فظائع ويلحق بهم من ظلم إنما يحدث لهم باستحقاق، لأنهم اكتسبوا ولابدّ إثماً ما، خطيئة أصلية ارتكبوها هم أنفسهم أو أسلافهم الغابرون لينالوا ما استحقوه من عقوبة على يد حاكميهم عسفاً واضطهاداً، اكتواءً بنار حروب أو تجويعاً في حصار، استبداداً أو حرباً طائفية، سرقة أموالهم عياناً من قبل سياسيين بلا قلب أو سوء خدمات، فقراً وانعدام أمان، كلّ ذلك يجري تبريره لا شعورياً من خلال اعتقاد بـ"عدالة العالم" الذي هو مجرد "وهم تكييفيّ يجعل الناس أقلّ توتراً وأكثر رضىً عن حياتهم البائسة".

الدكتور فارس نظمي وجد تطبيق هذه النظرية عراقياً في أمثولات شائعة يرددها العراقيون غالباً من قبيل "حيل بينا! إحنا العراقيين مو خوش أوادم" "نستاهل!" وغيرها من ألفاظ تطمين الذات على سعة عدالة العالم الذي نحيا فيه والذي وزن لنا إثمنا "المفترض" وأبدلنا إياه بما نستحقّ من ساسة لصوص وطغاة عقائد وعبيد أموال.

مشاعر الذنب الجماعيّ التي ذكر لها الكتاب أمثلة في إيذاء الجسد باللطم والتطبير مثلاً، هي التي تخفف من غضب الشعوب على أوضاعهم المزرية وصانعيها، ولذا فإن السلطات الحاكمة بديكتاتورية العقيدة تعمد إلى تكريس طفولة الإنسان وجهله اللذين يدعوانه إلى إلحاق الأذى بنفسه، شأنه شأن الطفل الذي لا يجد له حولاً وقوة لردع أعداء سلطانه على نفسه فيتوجّه بالعقوبة لنفسه لوماً وتقريعاً وربما إيذاء جسدياً.

بانتهاء طفولة الإنسان وجهله "أو تجهيله المتعمّد" لا بدّ له من الشعور بأن العالم ليس عادلاً كفاية وأنه ليس هنالك من أب أو أخ أكبر عادل يعاقب "أبناءه" على ذنب غامض بصنوف الظّلم التي يفرغها الساسة الظلمة على رؤوس شعوبهم. ولهذا فإن إنساناً شبّ عن طوق الجهل لا بدّ له من أن يغضب على ظالميه، من هنا جاء عنوان كتاب مهم آخر للألمانيّ "ستيفان هسل" الذي أورد أن مفتاح الحلّ دائماً هو الغضب!

كتاب د. نظمي يقدّم دليلاً على أن معظم مأزقنا السياسية والاجتماعية ذات جذر نفسيّ لأننا مأزومون ومرضى بقدر ما في نفوس حكّامنا من أمراض مستعصية.

الهويّة الوطنيّة في مهبّ الهويّات الصغرى (٣)

الـــتـبـــاس الـــهـــويّـــة

سعدون محسن ضمد

هل أنت شيعي أم سني؟ تعرضت مؤخراً لهذا السؤال بشكل متكرر، ودائما أسأل نفسي قبل الجواب: فعلاً، هل أنا شيعي أم سني؟ ثم أضحك في داخلي، وأفلت من الجواب بابتسامة اعتذار.
لكنني وأمام إلحاح أحد أولئك المتسائلين أجبت مستفزاً: لا هذا ولا ذاك فأنا لا ديني.. لكن، ولأن اللادينية لم تستطع إلى الآن أن تشكل هوية، باعتبار أنها في الأصل انقلاب على الهوية الدينية، ولأن للهوية جذراً لا ينفع الانقلاب عليه. عاد سائلي يكرر مُلحّاً:
مع ذلك وبعيداً عن الإيمان بالدين من عدمه، هل أنت شيعي أم سني.. عندها أجبته مستسلماً: إذا كنت مصرّاً فأنا من عائلة جنوبية تنحدر من محافظة ميسان. عندها ابتسم بوجهي وهو يقول: إذن أنت شيعي.

كان الرجل يريد أن يتحدث دون خوف لذلك ألح في سؤاله، ولذلك علينا أن نفهم الأسباب التي تجعل موضوع الهوية ملتبساً إلى هذا الحد، أي إلى حد يجعلها شرطاً في توفير بيئة آمنة حتى بالنسبة للأحاديث اليومية. فما معنى أن يكون الفرد منا (شيعياً أو سنياً، أو مسيحياً أو عربيا أو كرديا.. الخ) ولماذا تشكل هذه المسميات هوية، تعتبر أكثر حضوراً وتأثيراً في الجماهير، من الهوية الوطنية؟

الجواب على هذا السؤال يبقى عسيراً إذا لم نعالج التباس مفهوم الهوية. ولذلك ومن أجل الالتفاف على عقدة المفهوم في السؤال سأحاول أن أعالجه من نواح عدة:

أولاً: الوعي بالهوية:

يعود بنا الجذر الأساس للهوية، إلى الوعي، فهذا الجذر مفهومي، مركوز في الوعي، إذ الهوية نتاج لاحق على وعي الإنسان بذاته وصياغته مفهوم الأنا الخاص به، فبعد تشكل الملامح الأولى للشخصية وشعور الفرد باستقلاله كذات واعية، يأخذ بتقسيم مفردات المحيط انطلاقاً من هذه الذات وبالاستناد إليها. أي، يعمل على تقسيم مفردات المحيط وأشيائه، إلى ما له وما ليس له، كل المفردات، سواء أكانت بشرية أم مادية أم معنوية، فأفراد المجتمع ينقسمون إلى عائلته وقبيلته، وإلى غير هؤلاء، وبقية الأشياء تنقسم أيضاً، إلى ما له وما لغيره.. الهوية بهذا المعنى هي عملية تقسيم للمحيط وإعادة تعريفه تعريفاً ينطلق من الذات التي تريد أن تضع حدوداً بين ما لها وبين ما ليس لها.

بعبارة أخرى، نستطيع أن نقول بأن الهوية هي دائرةُ ملكية تتسع انطلاقا من ذات الإنسان لتشمل كل ما يحيط به ويمكن أن يرتبط به بنحو من أنحاء الارتباط، فتبدأ دائرة الملكية بالنسبة لأي إنسان يقوم بتعريف ذاته لذاته، بالانطلاق من صفاته التي تميز شخصيته، فيفهم أن من بين جميع الصفات المحتملة هو يمتلك حيزاً معيناً من هذه الصفات، صفاته هو، ثم يتوسع قليلاً، فيفهم أن من بين جميع الأفراد الموجودين في المجتمع هناك مجموعة محددة يرتبط بهم ويرتبطون به وهؤلاء من يمثلون أهله وأقاربه، أي ما له من الأفراد، وربما ما يملكه.

ثم يتوسع للأشياء المحيطة به، فمن بين البيوت هناك بيته، ومن بين الأراضي هناك أرضه، ومن بين القرى قريته أو مدينته أو بلده، ومن بين المجتمعات مجتمعه، ومن بين الأملاك أملاكه، وأمواله وأدواته ووووو الخ. ولأن الإنسان مصلحي بطبعه، فسيسعى لتوسيع هذه الدائرة ما تمكن من توسيعها، فليس هناك من مبرر يدفع المواطن البصري للاعتقاد بأن حدود الأرض التي تشكل ملجأ له تتوقف عند محافظة البصرة، إلا إذا حدث طارئ ساعد على ترسيخ هذا الاعتقاد.

استثمار الهوية

يتأسس على عملية إعادة تعريف المحيط إلى ما للفرد وما ليس له، جذر آخر من جذور الهوية، وهو الجذر المصلحي، إذ الفرد القائم بالتعريف يعي بأن الجماعة الخاصة به، تحميه، وتضمن حقوقه، وتساعده على تجاوز أزماته، لذلك هو يحرص على اكتساب هذه الامتيازات والحفاظ عليها، ما يجعله مستعداً لتوفير جميع الشروط اللازمة لتحقيق هذه الغاية. ومن هنا يرضخ الفرد لقيم الجماعة وعاداتها وقوانينها ويؤمن بمعتقداتها، حرصاً منه على تماسكها، إذ الجماعة المتماسكة أقدر من غيرها على حماية امتيازاته.

الولاء للهوية

المستوى اللاحق للمستويين الأولين هو مستوى الولاء، فترَسخ الارتباط بين الفرد وبين مفردات هويته إلى الدرجة التي يشعر معها بأن أي خطر يهدد هذه المفردات يهدده هو، يؤدي بصورة مباشرة لتبلور الولاء، الذي هو رفض يتوجه من قبل الفرد لأي خطر يهدد الجماعة ولو كان خطراً معنوياً لا يؤثر تأثيرات مادية مباشرة. فالذي ينتقد مقدسات الجماعة الفكرية، إنما يهدد تماسكها، باعتبار أن المقدسات مادة لتماسك الجماعة، ما يعني بأن الاعتداء عليها يمثل خطراً داهماً على الجماعة بأفرادها، وهكذا يتبلور الولاء للجماعة ولكل ما تؤمن به وتحترمه، ويتبلور من هذا الولاء معتقد الجماعة الذي يتسالم عليه أفرادها ويحرصون على حمايته.

إذاً وبعد هذا العرض الموجز نستطيع أن نفهم بأن المذهب السني هو معتقد جماعة أهالي الأنبار (مثلا)، وبالتالي هو ملمح من ملامح هوية الأنباري، وكذلك الكردية بالنسبة للأربيلي، وما علينا أن نتساءل بشأنه هو: لماذا تطفح السنية أو الكردية أو الشيعية إلى السطح وتزاحم العراقية، خاصة وأن الإسلام يمكن أن يكون الملمح (المعتقدي) الذي يجمع هويات هذه المكونات الثلاث؟

الجواب يعود بنا إلى الجهة التي يأتي منها التهديد للجماعة، هذا التهديد الذي يشعر معه كل أفرادها بأنهم عرضة لخطر داهم. وملابسات أحداث ما بعد ٢٠٠٣ هشمت الهوية العراقية لأنها ساعدت على إيجاد تهديدات مختلفة للعراقيين..

لنتذكر (مثلا) المعايير التي قُسمت على أساها الحظوظ في مجلس الحكم الانتقالي، فهذه المعايير كانت طائفية/ أثنية. ومن هنا شعر السنة العرب بالخطر الذي يهدد حضورهم في حكم العراق، والأمر نفسه حصل بالنسبة للكرد في هذه المعادلة.

للهوية ملامح كثيرة غائبة تحت سطح الوعي اليومي لأفراد الجماعة، ولا تطفح بعض هذه الملامح إلا عندما تكون الهوية مهددة من جهتها، فشيوخ عشائر (المناطق الغربية) في العراق علمانيون في أغلبهم، أو على الأقل، لا يشكل الإسلام هاجسهم الأكثر إلحاحاً، فما الذي حول هذه العشائر في وقت ما إلى حاضنة دافئة للإسلام المتشدد، أو القاعدة تحديداً؟ السبب هو أن الجهة التي هُددت من خلالها هوية هؤلاء الشيوخ، هي جهة المذهب، ولذلك مثّل تنظيم القاعدة حلاً بالنسبة لهم، لكن عندما تزاحمت سلطة المتشددين مع سلطة شيوخ العشائر على مناطقهم، تغيرت المعادلة، فتهديد سلطة الشيخ على عشيرته يقلقه أكثر من التهديد الذي يمثله مسار العملية السياسية.. التهديد الأخير غير مباشر والأول مباشر.

الأمر نفسه يسري على الكرد، فقد بقي الشعور القومي لديهم حاضراً، لأن الجهة التي بقيت مصدراً للتهديد في هويتهم هي مشاعرهم القومية.

من جهة أخرى نجد أن أياً من هذه الهويات (الفرعية) يمكن لها أن تنقسم لهويات متعددة، ما أن يتوفر شرط التهديد، فمثلاً هناك شعور يتنامى لدى أهالي الجنوب بأن المناطقية أخذت تتحول لمعيار في تقسيم حصة الشيعة بالحكم، وأن أهالي بغداد والفرات الأوسط يستأثرون بالحصة الأكبر على حساب أهالي الجنوب، وهذا تهديد من شأنه أن يقسم هذه الهوية (الشيعية) إلى هويات متصارعة.

على هذا الأساس نستطيع أن نقول بأن ليس هناك بلد بمأمن من انقسام هويته الوطنية دائماً، كما أن ليس هناك بلد عرضة لمثل هذا الانقسام بصورة مستمرة، ولو أن إحدى الطوائف المسيحية في أي من البلدان الغربية شعرت بتهديد يستهدف هويتها لاصطفت وتسلحت، بل أن الهوية المسيحية هناك أخذت تشعر بتهديد يواجهها من اتساع حجم الهوية الإسلامية الناشئ من هجرة مزيد من المسلمين إليها، وهناك اصطفاف ديني آخذ بالتنامي في تلك البلدان.

إذاً الهوية تتسع وتتقلص بحسب مخاوف الجماعة ومن ثم أفرادها، وإذا استطعنا أن نطفئ المخاوف الطائفية لدى السنة والشيعة، والقومية لدى الكرد فلن تعود هناك مبررات كافية لوجود هذه الهويات الفرعية، إذ الإنسان يتصرف غالباً بدوافع مصلحية تستهدف توفير وحماية فرصه الأحسن بالبقاء، والسني الذي يخاف من توزيع الحصص في الحكم على أساس طائفي، يعلم مسبقاً أن حصص السنة ستكون أقل وسط أغلبية شيعية، لهذا هو يشعر بأن فرصته بالبقاء أصبحت أقل في عراق ما بعد ٢٠٠٣، ولذلك هو يقاتل من أجل تطمين هذه المخاوف، ومتى ما شعر بأن التقسيم بحسب الطائفة لن يشكل تهديداً مباشراً لفرصه، سيكف عن هذا القتال. ولذلك يحرص الساسة في العراق على إبقاء هذه المخاوف لدى الجماعات والأفراد متقدة، ليسهل عليهم استثمارها في تحقيق مكاسبهم الخاصة.

ومن هنا نفهم بأن العقدة الأساس وراء تصدع الهوية العراقية، هي عقدة سياسية، فشعار العدالة في توزيع المكاسب والامتيازات على الشعب العراقي، الذي يرفعه ساسة كل مكون، شعار زائف، فالعدالة بالتوزيع تضمنها النسب السكانية شرط أن يكف الساسة عن التدخل في توزيعها، فلو أننا فتحنا باباً للتعيين في السلك الصحي، مثلاً، وتجاهلنا الصفة المذهبية في طلبات التعيين، ما الذي سيمنع من إشغال حصص التعيين بحسب النسب السكانية؟

لهذا السبب لا نسمع عن مخاوف طائفية تتعلق بالعدالة في توزيع فرص التعليم الابتدائي، لأن التعليم في هذه المرحلة إلزامي، وهو يشمل الجميع بحسب نسبهم السكانية.

محـمّـد بـاقـر الـصّـدر مـثـارٌ لـلأسـئـلـة (٢-٢)

عمّار أبو رغيف

إشكالي أنت دون ريب، ولا غرابة فالإشكالية توأم الإبداع والحلم الجسور. لكن هناك من يخبط الأرض مستفزَاً، عسى أن يفسد جلال الأسئلة التي تبرق صباح مساء من أرجاء عبقريتك السامية... يعترضون عليك أنك قد تأثرت بأفكار الغرب التي لم يفقهوها، إنها لسخرية حقاً...

ألأنه كان في القمة حينما حمى الوطيس في أعنف جدل عقائدي وأيديولوجي، فدافع عن العقيدة وعن الشريعة أمام هجوم اكتسح بيوت العباد والفقهاء، حتى صارت الشيوعية شرعاً في أزقة النجف ومحافلها، فهل الماركسية التي قارعها قدمت من الحيرة، وحررها المنذر بن ماء السماء، أم أنها خالص فكر الغرب في عصر الحداثة وعلى أرض الألمان؟

ألانه قرأ لابلاس وراسل وكينز، وحاورهم ونقدهم حتى النخاع، وأبدع رأياً مبتكراً في المنطق الحديث، رأياً بهر العارفين بمدارس الغرب، حتى أصر الراحل الدكتور زكي نجيب محمود متمنياً على ابن خال السيد الدكتور جعفر بن الشيخ مرتضى آل ياسين أن تتم ترجمة نظريته في منطق الاستقراء الى الإنجليزية ليطلع الانجليز على فكر تعبق منه رائحة الشرق؟

ثم لو سلمنا جدلاً أن ناقد أرسطو تأثر بالغرب، فهل الارسطو الذي ترفعونه إلي مقام العصمة ينتمي الى تميم، أم انه من أهالي البصرة الفيحاء، عاد حاجاً مع صدر المتألهين، فمات الثاني وبقي الأول إماما أبدياً للعلوم؟! ولعلّ أثينا اليونانية مدينة على مشارف حدود دشت ميسان تجاور شوش دانيال في أرض العيلاميين!!.

حزين أنت حتى في ابتسامتك التي ندر أن غادرت محياك، أنت مسكون بحزن عريق، تجذر في دمائك، وتحدر اليك من دار الأحزان وسبايا كربلاء إلى الظلم الذي رافق أهلك وذويك على طول عمود هذه الحقب، وقد سقى جذور هذا الحزن صوت عاشوراء ونداء الحسين المثكول، صوت عاشوراء هو حاضرنا وحاضرك اللصيق بأفراحنا، والحاضر مع كل راوية لك من عطش الصحراء، التي اخترت العيش على رمالها، وعند حدودها.

وأي حزن كان آخذاً بناصيتك، وأنت تقود قافلة منزوعة السلاح في مواجهة غير متكافئة؟! عزلٌ شبانُك، أما خصمك فقد كان مدججاً بالسلاح، وكان الأقسى والأعتى في التاريخ. أي حزن صبور تشرّف بحضرتك، وأنت تكاد تسمع ملاحم الفتيان في أقبية السجون؟! لقد رأيتهم وحدثتهم وكانوا أمانيك، ومنهم من هو أقرب إليك من بنيك، وكانوا آمالك، وإذا بالأماني والآمال المقدسة تُذبح، والصمت يطبق على ما خلف الزنازين، وليس في وسعك إلا أن تحزن!.

لك الله صانع مجدك، لك الله في غربتك بين قومك، وفي خذلان من خذل، وفي تركك أطفالك ليعيشوا كما يعيش أطفال الفقراء من شهداء قافلتك، ولك الله في قسوة الحِمام الذي ذهبت إليه، وكان استفراداً جباناً وانقضاضاً وحشياً، ولم تندهش منه، فليس هناك مفاجأة لك، لا في غربتك وغربة أطفالك ولا في قسوة القتل الفظيع الذي واجهته بكل شجاعة.

لكن دهشةً مريرة تنتظر حزنك!.

فهل بوسعك اليوم أن ألا تحزن؟

لا شك أنك اليوم أعمق حزناً ، وأنت ترقب زلازل البارود تحصد الأرواح من أبناء وطنك، ولا شك في حزنك على مآلات مشروعك، ماذا يفعل بقية السيف؟ ماذا يفعل الناس؟ إلى أين نحن ذاهبون؟ بل ليس الحزن وحده، إنما دهشة الحزين، دهشة الثمن الباهظ وفداحة الغبن في المثمن...

لكنك يا مفخرة المعلّمين علمتنا البحث حال الانسداد عن العقل وأحكامه، وعن النص ومقتضياته، عسى أن نفتح ثغرة في جدار الانسداد الكبير، نطل عبرها على آفاق للحلول. وكيف بالآدمي وهو يرى الأفق مغلقاً، وهو بالعزيزة الآدميه يتطلع إلى الأمل، إلى الحلول، إلى الحث على الاستمرار في الحياة.

أما السلبية والإحباط فلا يمكن أن يصيره احد عادة يروّض الناس على ألفتها، فسأم السلبية إما أن يهلك الآدمي، وإما أن يفضي به الى اجتراح حلول شاذة.

ومن ثمَّ نستضيء بفهم صاحب الذكرى، وعلى طريق المصالحة مع الفهم، التي هي أولي المصالحات، سأسجل ملاحظة واحدة فالختام، عسى أن ننتفع بها أو على الأقل نفيد من إثارتها، لما لها من أهمية بالغة في الراهن الملح من زمننا وفي مستقبل أيامنا:

اختفاء طبقة الشغيلة وغياب النظريّة

أين العمال والفلاحون؟ أخذت هذه الطبقة بالأفول، فأنا لا أراهم على المسرح، وإذا رأيتهم فهم سحاب صيف سرعان ما يختفون. أترك رصد عناصر المسرح المدركة حسياً، وأذهب إلى عملي المضني في البحث عن المختفي أو المنقرض.

إن طبقة العمال والفلاحين آخذة بالانقراض في مجتمعنا وفي ظل نظامنا الاقتصادي الذي لا أعرف اسمه. أجل نحن السباقون، نحن أبناء آشور وسومر وبابل التي أطلت منها العجائب والجنائن على الدنيا. ليس عبثاً أن نقضي على هذه الطبقة الزائدة في عالم الاقتصاد زيادة الدراويش في عالم الوجود عند هولاكو الذي قضى عليهم وهو عائد من الرقة. إننا نريد أن نسجل على الماركسية اللينينية أشكالاً لا تستطيع صده حتى بالدروع الصاروخية.

الماركسية تفسر التحولات التاريخية على قاعدة الصراع الطبقي، وتقول إن عصرها الذهبي تبدأ تباشيره بصراع طبقة الشغيلة مع الطبقة الرأسمالية مالكة وسائل الإنتاج، ثم يتطور هذا الصراع ويتراكم كمياً ليتوج بتحول ديالكتيكي رائع وبفقرة كيفية، تسيطر عبرها قوى البروليتاريا وطبقة الشغيلة على الثروة والسلطة، وتصبح مالكة للإنتاج، الذي هو ملكها الواقعي حسب قانون فائض القيمة.

رد عليهم المفكرون الليبراليون بأن الطبقات بحكم قوانين السوق تتعادل حقوقها تعادل المياه في الأواني المستطرقة، ولا صراع حتمي بين الطبقات مع إدارة رشيدة لنظام السوق القائم على أساس قانون العرض والطلب. وشاهدهم العملي هو هذه الطبقات المتعايشة في النظم الرأسمالية المتطورة تقنياً حتى الإشباع.

أما نحن في العراق فنقول للعقل الدوغمائي الماركسي: لدينا اقتصاد وثروة وميزانية تنوء بها العصبة، وليس في اقتصادنا الواعد أي أثر للصراع، لأننا أخذنا بحذف طبقة العمال والفلاحين، ومن ثم فليس لدينا طبقة اسمها طبقة الشغيلة لتصارع أرباب رأس المال ومغتصبي ريع الأراضي. ومن ثم لا حاجة لنا بالمناقشات النظرية التي جاء بها الشهيد الصدر في «اقتصادنا»، فنحن نقدم الردود العملية الحسية!.

هذه مزحة أردت بها إلفات النظر بقوة إلى ما نحن فيه من إشكالية خطيرة لها تداعيات مدمرة، إنها إشكالية تعطيل عجلة الإنتاج، الذي يشكل الكبد من الدورة الاقتصادية، ويشكل أيضاً أحد أو أهم العوامل لتوفير الأمن الاجتماعي والأخلاقي. فالكفاءة الإنتاجية تعادل كفاءة الكبد ودوره الخطير في الحفاظ على الحياة الإنسانية.

إن انخفاض مستوى الإنتاج يعني البطالة وما يستتبعها من مشكلات اجتماعية وأخلاقية، وارتفاع حجم البطالة يتناسب تناسباً عكسياً مع انخفاض القدرة الشرائية، وكلما انخفضت القدرة الشرائية انخفض الطلب ومعه ينخفض العرض، حتى يتهاوى صرح النظام الاقتصادي بأكمله جراء الزيادة المتواترة للتضخم أو للتشمع الكبدي. ومن ثم نلوذ بالنفط الاحتياطي القومي وثروة الأجيال القادمة لتستهلك ببرنامج النفط مقابل الغذاء!.

إن ما نحن فيه من وضع خطير يتحول إلى كارثة لولا النفط. هذا الدواء المخدر والداء المزمن الذي جلب مع خيره أفدح المصائب للعراق. ولو عصفت بعض رمال هذه الأزمة الإنتاجية الجاثمة على أرض السواد بتركيا أو بغيرها من الدول غير النفطية لخنقت الدولة وسقط النظام.

وإذا كان النفط يتيح للدولة فرصة الحؤول أمام الكارثة الاقتصادية عبر تفعيل دور الخدمات وتضخيم حجم القطاع العام وزيادة الإنفاق العام وضخ السوق بالموارد المالية بشكل مباشر أو غير مباشر عبر زيادة مستوى استهلاك بعض الطبقات المحضية بما يسمى مستحقات أو رواتب وهبات. فإن الدولة لا تستطيع الحؤول أمام التبعات الاجتماعية والفردية لانخفاض حجم الإنتاج. التي تتصادم بشكل رئيسي مع قيم المجتمع الأخلاقية والدينية وتهدد أمنه الاجتماعي والسياسي.

وإذا قمنا بدراسة جدوى عما اعتبرناه آثاراً اجتماعية وأخلاقية نجد أن التكلفة الاقتصادية لهذه الآثار باهظة جداً. وأننا في الوقت الذي نفرط بأهم مصادر الثروة والتنمية الاقتصادية (الإنتاج) نتحمل باهظ التكاليف لتوفير الأمن الاجتماعي والسياسي، بل الأمن القومي بأسره جرّاء البطالة والتضخم اللذين ينجبهما إهمال تنمية الناتج القومي وإطلاق عجلة الإنتاج. وسنحرق النفط مرتين مرة في سبيل سد عجز الإنتاجية وأخرى في سبيل معالجة الأزمات الناشئة جراءها، فيكون النفط مقابل الغذاء والدواء!!

وعلى ذكر «اقتصادنا» وذكرى صاحبه أختم حديثي بالإشارة إلى:

أولاً: إن العزوف عن فكرة الدولة الدينية لا يلغي الدين، والانصراف عن مهمة إقامة الحياة الاقتصادية على أساس التشريع الإسلامي لا يلغي عظمة هذا الفقه، الذي كان مصدر إلهام لمدارس الفقه والتقنين في أهم مدارس الغرب الحديث كالفقه الفرنسي والألماني.

ثانياً: الفقه الإسلامي بكل مذاهبه متراس لإحياء فكر التقريب بين المذاهب والحوار الجاد على طريق التفاهم بين المسلمين، بعيداً عن التطاحن الطائفي المقيت، الذي تغذيه الغرائز والجهل، وهذا هو مسلك الصدر، بل مسلك النجف عند كاشف الغطاء والحكيم والمظفر. ونظرية الاقتصاد، بل أي رؤية نظرية شاملة للدين تستدعي خصب الفقه الإسلامي باجتهاداته المتنوعة.

ثالثاً: إن الصدر في (اقتصادنا) يعلمنا كثيراً عن الاقتصاد وإدارة البرنامج الاقتصادي بغض النظر عن العناصر الأيديولوجية التي تبناها، فهي على أهميتها ليست كل هذا الجهد الإبداعي الذي تضمنه الكتاب، وللإشارة فقط: إن السفر الجليل طرح ما أسماه بفقه النظرية، مؤكداً أن إدارة الحياة العامة وإدارة العملية الاقتصادية تتطلب نظرية منسجمة في قواعدها وأسسها العامة مع نفسها، ومع التشريعات القانونية التي تعبر عنها وتضمن إجراءها.

وما أحوجنا أن نفهم أنّ فقدان الرؤية النظرية في إدارة شؤون الناس يعني العشوائية فإطالة الطريق للوصول إلى النجاح والإنجاز، هذا إذا توخّينا الإنجاز والنجاح.

ولعل التقليل من تجربة (اقتصادنا) ناشىءٌ من مواقفه النقدية للنظام الرأسمالي، وكأن الخوف من النظم ونقدها لا يزال ساكناً بين ضلوعنا ومتربعاً على مخيلتنا تربع شرطة الأمن والمخابرات على ذاكرتنا، ففي قلب النظام الرأسمالي الحر هناك نقد متواصل ودراسات علمية تتواتر، فلِمَ نحن هنا في أرضنا نخاف أن ندخل في حوار نقدي مع الرأسمالية! أجل في أرضنا اغتيل عليٌ وقُتل الحسين، ولكن ستنهض من هذه الأرض العبقريات، بل هي ناهضة على طول التأريخ!

يَنصِفُ العبقريَّ دهرٌ فسيان
وَفَى أصفياؤه أم خانوا